مطرانية ملوى وأنصنا والأشمونين

تأملات انسانية

الحياة الباطنية

الأنبا بيمن

إسم الكتاب : الحياة الباطنية
إسم المؤلف : الأنبا بيمن
إسم المطبعة : مطبعة مطرانية ملوى
إسم الناشر : مطرانية ملوى
جمع تصويري : جي . سي . سنتر
رقم الإيداع : ٨٥/٤٨٠١
الطبعة : الأولى

المحتـوى

تصديـر

الفصل الأول : عودة إلى الشخصية الفردوسية

١ ــ الأنـّـا ٩

٢ ــ كرامة الإنسان ١٥

٣ ــ الشخص والشىء ٢٢

الفصل الثانـى : الطريق إلى الشبع الروحى

١ ــ سريان النعمة فى الشخصية ٢٨

٢ ــ يملأ كل إحتياجاتنا ٣٥

٣ ــ النفس الشبعانة ٤١

الفصل الثالـث : هل من ضرورة للحياة الروحية ؟! ٤٥

الفصل الرابـع : إيجابية الحياة ومعناها

١ ــ الإيجابية فى الحياة ٦٠

٢ ــ معنى الحياة ٦٥

الفصل الخامس : أبعاد المحبة الفائقة ٧٠

المحتويات

الفصل الأول : مقدمة في علم الاجتماع
١ ـ تعريف علم الاجتماع ٩
٢ ـ نشأة علم الاجتماع وتطوره ١٥
٣ ـ موضوع علم الاجتماع ٢٢

الفصل الثاني : الجماعات البشرية
١ ـ تعريف الجماعة وأنواعها ٣٨
٢ ـ الجماعات الأولية والثانوية ٥٦
٣ ـ الجماعات المرجعية ٦٤

الفصل الثالث : ما هي الثقافة ؟
١ ـ تعريف الثقافة وعناصرها ٥٩

الفصل الرابع : الشخصية
١ ـ تعريف الشخصية وأنواعها ٧٠

تصديـــر

القامات الروحية

تختلف القامة الروحية لإنسان عن الآخر وفقا لعمل النعمة فى حياته ، ومدى جهاده الشخصى وحرصه على إقتناء الحياة الباطنية ، فالذين يصممون على أن يصعدوا إلى جبل الرب كما فعل موسى النبى فى القديم لابد أن يتجاوزوا السفح ويظلوا مثابرين على التسلق ، وقمة الجبل أمام أعينهم ساعيين إلى إقتناء الحياة السماوية حيث الأذرع الإلهية تحمل المجاهدين وترفعهم من مستويات الحياة الجسدية إلى الحياة الجديدة حسب الروح حتى أن يصلوا إلى العمق الذى يشتهونه .

بادىء ذى بدء نجد الدموى الغريزى الذى تحركه الغرائز والدوافع البيولوجية ، فهو أسير شهوة الدم واللحم ليس له إشتياق أن يرتفع عن حياة أرضية منتهاها ما قاله الرب أنت تراب وإلى التراب تعود ونحن نجد الكثيرين فى الحياة العامة على هذا المستوى إذ لا همَّ لهم سوى جمع الأموال والجلوس على الموائد الشهية لإلتهام الأطعمة

الكثيرة وممارسة الجنس فى وقت مناسب وغير مناسب . هؤلاء لم يدخلوا أعتاب الحياة الروحية بل هم أناس يقتنون لأنفسهم غضب الله إذ يحزنون روح الله الساكن فيهم ، ويطمسون صورة الله البهية التى خلق الله الإنسان على مثالها وشبهها ..

وهناك مستوى أفضل من السابق وهو مستوى مشيئة الجسد .. فالإنسان الجسدى وإن كان أفضل من الدموى إلا أن كليهما بعيد كل البعد عن الحياة الجديدة التى من أجلها جاء الرب يسوع له المجد .. فالذى يعيش حسب الجسد لا يعطى الغرائز كل طاقاته بل يحرص على أن يشبع قواه الفكرية وطاقاته النفسية وعلاقاته الاجتماعية . إنه أسير الجسد ، ولكنه ليس مستعبداً للمال والطعام والجنس فحسب .. إنه يقرأ ويدرس ويمارس أنشطة تشبع مواهبه الجسدية ..

وهناك قامة أعلى من سابقتيها وهى قامة مشيئة الرجل .. هنا يتقدم الإنسان فى خلقياته وسلوكه ونظرته للحياة ، فهو ليس أسير المادة فقط ، ولا هو منساق وراء مواهبه الجسدية ، وإنما هو إنسان قد تهذب منذ طفوليته ليُعد كى يكون رجلا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . الرجولة فى التصرف والأداء ، الرجولة فى

العلاقات ، الرجولة فى ضبط النفس إزاء المغريات ، الرجولة أمام المصادمات وكافة وسائل الأحباط ..

أما الذى تعتبره المسيحية إنسانا روحيا فهو الذى عبَّر عنه البشير يوحنا فى إصحاحه الأول بقوله : « المولودين من الله » أى المولودين بالماء والروح ، والذين يسلكون حسب الروح وليس حسب الجسد .. فى هذه المرحلة يتجاوز الانسان الأنا الطبيعية ليسلك حسب مشورة الله « الذين ينقادون لروح الله أولئك هم أولاد الله » .. مثل هؤلاء تسرى النعمة فى حياتهم تملأ أرواحهم وأنفسهم ، وحتى أجسادهم تتروحن أيضا .. من أجل هذا نستطيع أن نقول إن الحياة الروحية ضرورة إنسانية كما هى ضرورة خلاصية . هذه الحياة تعطى للإنسان دينامية وإيجابية كما تفسر له معنى الحياة وسرها .. وبدون هذه الرؤية تصبح الحياة مادية مملة تقود إلى السأم والرتابة والملل والقرف .

وفى ختام سلسلة هذه المقالات نعرض لأبعاد المحبة الفائقة المعرفة فى طولها وعرضها وعمقها وعلوها . ليت الله إلهنا الصالح يعطينا أن نصعد على جبل الرب متجاوزين الأنا والذات الجسدية ومتمسكين بالحياة الروحية بكل إيجابياتها لندرك المحبة الفائقة المعرفة .

الله أبونا السماوى الذى أعطانا عزاءً أبدياً ورجاءً صالحاً بالنعمة يثبتنا وينمينا فى كل عمل صالح .

له المجد الى الأبد آمين ؟

١٩٨٥/٦/١ بنعمة الله بيمن

أسقف ملوى

الفصل الأول

عودة إلى الشخصية الفردوسية

١ ــ الأنـــا

خلق الإنسان على صورة الله ومثاله فى الحرية والإرادة والرغبة فى الكمال والإبداع ، ولم يشأ الله أن يفرض عليه وضعاً وإنما منحه الحرية التى عليها تقوم كرامة إنسانيته ..

وأوضح له أنه من خلال طاعته للوصية يحيا فى الحب والإتضاع وتجاوز الذات ، بينما فى حالة المخالفة يحيا فى سجن الأنا وعبودية الذات وجحيم المخالفة ولعنتها ..

وكان على الانسان فى الجنة أن يتخذ موقفا من محبة الله ، إما أن يقول نعم أو لا .. أن يجيب على الحب بالحب فيتحرك بإستمرار إلى الحب الإلهى بتلك الطاقة الدينامية التى أخذها منه فيزداد إقترابا من الله ونموا فى الفرح والمعرفة والقوة والقداسة أو أن يرفض هذا الحب ويطلب الإستقلال والإكتفائية والمعرفة الذاتية ..

التجربة والسقوط :

فالتجربة التى كانت أمام الإنسان الأول هى إما أن يحيا فى

الطاعة فيختبر الحب والفرح الإلهي والخير كله ، وإما أن يستقل عن الله فيعرض نفسه للمعرفة بعيداً عن الدائرة الإلهية وهنا السقوط والضياع ...

خطيئة الإنسان الأولى هى خطيئة التمرد والإنتفاخ وتأله الذات ، أراد أن يستغنى عن الله ليكون إلها لنفسه وسيداً مطلقا على كيانه ، وبعبارة أخرى أراد أن يرفض الله لينصب الأنا صنما يعبده ، والذات محورا يدور حوله ..

الرب يسوع :

يربط القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه تجسد الكلمة بين تجسد المسيح والتحدث عن أصل البشر ، والخطيئة الأولى ، وأوضح أن الله تجسد لكى يخلص الإنسان من الفساد والموت الذى دخل إلى صميم كيان الإنسان وأنه لا وسيلة أخرى تقدر أن تقيم الإنسان من موت الخطيئة التى إمتزجت كيانه سوى أن تدخل الحياة الحقيقية إلى أعماقه حتى اذا ما لبس الجسد الحياة بدل الموت نزع عنه الفساد ..

فالقدوس البار الذى حمل خطايانا وسر الله أن يضع عليه إثم جميعنا هو قد صار خطيئة ولعنة لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه (٢كو ٥ : ٢١) .

بهذا الحب العجيب شفى الله البشرية من مرض الأنانية الذى فصل الإنسان عن الله . وجاء الإبن الكلمة نموذجا لحياة الطاعة كصورة مضادة لحياة الكبرياء والإنتفاخ التى صارت لآدم فى الجنة ..

+ أطاع حتى الموت موت الصليب وهو القدوس والبار .
+ غسل أرجل التلاميذ وهو الذى تسجد له الملائكة . ورؤساء الملائكة وإليها ينسب حماقة .
+ طوب المساكين بالروح ، والودعاء ، والباكين على خطاياهم .. وبخ الفريسيين المرائين المتكبرين الذين يعيشون فى بر ذواتهم الكاذب ..
+ ثم نادى بعد أن عمل بما علمه قائلاً :

« إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » (مت ١٦ : ٢٤) .

« إذا أراد أحد أن يكون أولا فيكون آخر الكل وخادماً للكل » (مر ٩ : ٣٥) .

« من أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً ، لأن إبن الإنسان أيضا لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن

كثيرين » . (مز ١٠ : ٤٤ ــ ٤٥) .

المسيح وأنا :

وإذا كان الرب يسوع قد أعطانا من خلال المعمودية والأفخارستيا الولادة الثانية والطبيعة الجديدة وقوة صليبه وقيامته إلا أن الذات فى الإنسان لا تموت نهائيا فى لحظة ، إنها تحتاج إلى جهاد ومعاناة طيلة الحياة كما قال لنا اباؤنا القديسون .. فبولس الرسول يقول فى رسالته الى أهل فيلبى « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) وفى موضع آخر يحث أهل غلاطية على مقاومة الأنا وصلب الذات بقوله : « ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات » (غلا ٥ : ٢٤) .

وهكذا فى بداية الطريق الروحى تكون الذات ظاهرة والمسيح له المجد مختفيا ، وبالنمو فى الطاعة وتسليم المشيئة ومقاومة الأهواء والميول الرديئة تبدأ حياة المسيح أن تتضح أكثر فأكثر ، وتظهر صورته البهية فى السيرة فتنتفى الذات رويداً وتتجلى مشيئة الرب بوضوح أكثر فبدلا من أن يكون خط الحياة أنا والمسيح يصبح محرك الوجود المسيح وأنا .

لا أنا بل المسيح :

وطالما الأنا موجودة ، فالأمر يحتاج إلى مزيد من التقدم الروحى .. حقا أن خطوة المسيح وأنا أفضل من الخطوات السابقة وهى أنا لا المسيح ثم أنا والمسيح . ولكن هل يقف الجهاد عند هذا الحد ... لابد أن روح الله يقود المؤمن فى مسيرته نحو الهدف الحقيقى الذى عبر عنه بولس الرسول « مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىّ . فما أحياه الآن فى الجسد فإنما أحياه فى الإيمان ، إيمان إبن الله الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى ». (غلاطية ٢ : ٢٠)

عندما نصل إلى هذه الحال تتحقق مسيحيتنا وتتحقق إنسانيتنا تتحقق مسيحيتنا لأن مسيحنا يصبح فينا رب المجد الحقيقى ، وتكتمل إنسانيتنا لأن حريتنا تصير حرة حقة لأنها تتحرر من عبودية الفساد والذات والتعصب والأنا والتمرد والكبرياء والغرور الكاذب والسبح الباطل يصبح الانسان بالحقيقة إنسانا ولكن .. كيف نصل إلى هذا الاختبار الدائم ؟ .. « لا أنا بل المسيح »

+ أن يكون المسيح الألف

لا أبدأ شيئاً ولا عملاً ولا قولاً ولا فعلاً إلا بعد أن أنال منه الاذن .. فهو الألف فى حياتى كلها .. فى كبيرها وصغيرها فى قولها وعملها ، فى فعلها الباطنى وعملها الظاهرى ..

+ وأن يكون المسيح الياء

بمعنى أن تنتهى كل الأقوال والأعمال إليه « وكل ما عملتم بقول أو بفعل فأعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين الله والآب به » (كو ٣ : ١٧)

+ وأن يكون ما بين الألف والياء

فهو الطريق كما هو الغاية ...

« والذى يأكل فللرب يأكل لأنه يشكر الله ، والذى لا يأكل فللرب لا يأكل ويشكر الله ، لأن ليس أحد منا يعيش لذاته ولا أحد يموت لذاته ، لأننا إن عشنا فللرب نعيش ، وإن متنا فللرب نموت ، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن »(رو ١٤ : ٦).

صـــلاة

+ ربى يسوع المسيح يامن أعطيتنى الطبيعة الجديدة ، أعطنى بقوة صليبك أن أميت أهوائى ، وبقوة قيامتك أن أحيا حسب الروح وليس حسب الجسد .

+ يا روح الله القدوس يا من أعطيتنى فى المسيح بالمعمودية دفن الأنا سراً ، هبنى أن أتمم هذا علناً لأنه مكتوب : « لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله » (رو ٨ : ١٤)

٢ ــ كرامة الإنسان

مشكلة الإنسان :

إن مشكلة الإنسان هى أنه هو الإنسان ...
فلا هو حيوان يأكل ويموت . ولا هو ملاك لا يأكل ولا يموت . هو الخليقة التى تحمل الطبيعة الأرضية ، والطبيعة السمائية معاً . له البعد الداخلى ، وله البعد الخارجى . له العمق وله الإتساع ، له الروح وله الجسد ، له العقل والنطق ، وله الحواس والحركة .. هذه الأبعاد المجتمعة هى التى أعطت للإنسان قيمة جعلته تاج الخليقة كلها ... وفى هذا يقول مرنم اسرائيل « أيها الرب ربنا ما أعجب إسمك على الأرض كلها .. بالمجد والكرامة توجت الإنسان ، وعلى أعمال يديك أقمته . كل شىء أخضعته تحت قدميه . الغنم والبقر جميعاً وأيضا بهائم الحقل ، وطيور السماء وأسماك البحر السالكة فى البحار . أيها الرب ربنا ما أعجب إسمك فى الأرض كلها هلليلويا » (مز ٨) .

وإذا كان الكتاب المقدس يبين أن الإنسان قد خلق على صورة الله ومثاله فى النطق والحرية والإرادة والإبداع وحب الكمال والمطلق .. فإن الإنسان يتمتع بهذه المكانة الفريدة من خلال كرامته التى

أعطاها الرب له وسلطانه على الأرض كلها كما أوضح داود النبى .

وتقاسى المجتمعات المتحضرة فى رقيها وتمدنها بمدى إحترامها لكرامة الإنسان .. فالمجتمع البدائى الهمجى هو الذى يهدر كرامة الإنسان بسهولة ، ويضحى بها لأجل أهداف أخرى ، والمجتمع المتحضر الإنسانى هو الذى يهتز إهتزازا عنيفا إذا مست كرامة الإنسان أو إعتدت جماعة إرهابية على فرد أو فئة لتحيز أو تعصب معين .

كرامة الإنسان قضية لاهوتية ، إن نظرنا إلى الإنسان كمخلوق إلهى ، وأن قصد الله من خلقته أن يتمتع بالفرح والمجد والحب والنور الذى يحيا فيه الثالوث القدوس .

وهى قضية إجتماعية إنسانية إذا درسنا تركيب المجتمعات وأيديولوجياتها ومدى عمق إحساس الجماعة والفرد بقيمة الإنسان كغاية فى حد ذاته ، وكعضو لا غنى عنه مهما كان موقعه فى بناء الإنسانية ورفاهيتها ...

نماذج لإحترام كرامة الإنسان :

+ عندما يريد مهندس معمارى أو إنشائى أن يتعرف على صلابة **إحدى المبانى يسرع إلى أضعف الأماكن فيها ويقيس بأدواته قوة**

التماسك . وهكذا رجال علم الإجتماع عندما يريدون قياس مدى رقى إحدى الشعوب ، فانهم يبحثون عن الإنسان فى ضعفه ومدى الإهتمام به مثل :

- فاعلية التأمين الإجتماعى للأرملة واليتيم والكهل ..
- دور الإيواء للعجزة وغير القادرين على العمل
- نوعية العناية بالمرضى فى المستشفيات العامة وبالأخص فى العنابر المجانية ومدى حماية الإنسان من تلوث الهواء والتجارب الذرية وكل ما يؤذى صحته مهما كان الثمن غاليا .
- مدى الإهتمام بالمشوهين وأصحاب العاهات المختلفة ومدارس المعوقين والمصحات النفسية والعقلية .

+ وهناك معيار إنسانى آخر وهو مدى إحترام حرية الإنسان الدينية والفكرية والإجتماعية .

فالمجتمع التقدمى هو الذى يحترم عقيدة الإنسان وبالأخص عند الأقليات ويحمى هذه الأقليات من عدوان المتعصبين حتى يضحى الإنسان آمنا على نفسه ومعبده طالما لا يتجاوز فى حياته حرية الآخرين وعقائدهم وعاداتهم الدينية والإجتماعية .

والمجتمع المتخلف الرجعى هو الذى ينظر إلى الإنسان من خلال عدسة التعصبات الدينية والمذهبية والقبلية والطائفية والطبقية .

إذا كان الله بنفسه قد خلق الأرض والأكوان لخدمة الإنسان فكيف يجرؤ إنسان مهما كان أن يهين خليقته التى كرمها وقدرها وأعطاها قيمة الى هذا الحد العظيم ؟!

+ ومعيارٌ إنسانى ثالث لإحترام كرامة الإنسان هو إحترام المرأة ككائن إنسانى خلق ليكون معينا للرجل ولكى يصنع وحدة وشركة معه .. إنها ليست جسدا فقط إنما شخص له كرامته . إنها ليست جنسا فقط وإنما هى أمى وأختى وزوجتى وإبنتى ... وهل يمكن للإنسان أن يحيا حياة كريمة وهؤلاء جميعاً يعشن فى التخلف والجهل والإنزواء حقيقة ليس للمرأة أن تتسلط على الرجل ولكن ليس للرجل أن يستعبد المرأة فيلقى بها فى بالوعة التخلف والرجعية والسلبية ...

+ معيار رابع هو نوعية التعامل بين الناس فى حياتهم اليومية فالمجتمع الراقى يحترم كلمة الإنسان .. للكلمة قدسية وكرامة . إنها تحمل الإلتزام والأمانة والإخلاص والصدق وعدم الإلتواء . الناس يصدقون بعضهم بعضا ويرتبون حياتهم على إرتباطات مشتركة تأخذ قوتها من الكلمة المقولة أكثر من التوقيع والشهود والتسجيل وقانون العقوبات .

والنظام أيضا قيمة إنسانية حضارية . الشعب الراقى ينتظم فى صفوف ويحترم القواعد والقوانين المرعية ، ويرفض الإستثناء والإمتياز وإن كان لابد منه فهو للضعيف والمحتاج وغير القادر تكريما لإنسانيته فقط .

والنظافة أيضا قيمة إنسانية لازمة . فلا رقى ولا تحضر بدون نظافة ، النظافة تعنى أن الإنسان يتحقق الحياة الكريمة ، الحياة التى تغلب الأمراض والمتاعب ، الحياة الجميلة التى تبهج نفسيته وتريح أعصابه ..

+ معيار خامس هو تكريم العمل مهما كان نوعه . قديما إحترم أفلاطون العمل الفكرى وإحتقر العمل اليدوى .. أما المجتمعات الإنسانية المعاصرة فهى لا تفرق بين ما هو فكرى وما هو يدوى ، لأن واقع الحياة ومعطيات العلوم تثبت الوحدة والتفاعل بين الإثنين . الكاتب والفيلسوف والوزير والمهندس لا يستطيع أن يحيا بدون العامل الذى يصلح العربة والذى يقوم بمهمة النظافة والذى يدير أجهزة الإضاءة وماكينات رفع المياه وهكذا .. المجتمعات الراقية تقدس ساعات العمل ، وتحترم مجالاته .. كما هى أيضا تحترم ساعات الراحة وتكثر من مجالاتها .. لأن الإنسان عندها ثمين فى عمله كما فى راحته ، فى أدائه كما فى هدوئه .

ما السبيل إذاً ؟ :

وبعد كيف يمكن لمجتمعنا المصرى أن يصل إلى هذه المستويات التى وصلت إليها شعوب أخرى كثيرة ..

+ التربية فى الأسرة وقدوة الوالدين وحرص الأباء على تنمية العادات والإتجاهات والقيم والمفاهيم والخبرات السابق شرحها

+ والمدرسة أيضا إمتداد للإسرة ، فإذا تضافرت العملية التربوية فى كلا العاملين تثبتت القيم والمفاهيم عند الناشئة .

+ وللكنيسة دور كبير أيضا فهى بيت الرب ، مجتمع القديسين ، ملكوت الله على الأرض .. من خلال مناخها الروحى وقدوة رعاتها وأمانة خدامها وسيرتهم العطرة يستطيع الجميع أن يتفهموا معنى كرامة الإنسان وكيفية تحقيق هذا النمط من الحياة عمليا .

وقد يتساءل واحد ويقول ما الذى يستطيع أن يعمله المؤمن اذا وجد المناخ العام فى المجتمع يضرب بكرامة الإنسان عرض الحائط ، ويمجد العنف والتحيز والرشوة والوساطة والطرق الملتوية ، ويعتبرها ذكاءاً وحكمة ، بينما يعتبر الصدق والأمانة والإخلاص ضيق أفق وجهالة وسوء تكيف مع المجتمع !!

الإجابة أنه يلزم الفدية .. يلزم الشهادة .. يلزم التضحية والبذل . فقديما كان الشهداء يموتون لأجل الحفاظ على الإيمان ، واليوم نحن نحتاج إلى شهداء يحترقون حبا وبذلا لأجل قيم إذا إندثرت قُل على مجتمعنا السلام .

+ واليوم نحن نحتاج أن نتعلم دروساً فى رفض المهاترات الدينية بين الشباب الجامعى لكى يتفرغ الجميع للعمل والإنتاج .

+ وأن ننظر إلى كل فرد فى بلادنا أنه ثروة يلزم الحفاظ عليها ونسهل له فرص النجاح لكى تنجح بلادنا من خلال نجاحه وإخلاصه .

+ وأن نتمسك بالأمانة والإخلاص مهما كانت بعض النماذج أمامنا منهارة حتى نبقى ملحاً للأرض ونوراً للعالم .

٣ ــ الشخص والشيء

تكاد تنحصر خطيئة الإنسان فى أحد مجالين : إما تشييء الإنسان أو تأليه الأشياء ..

لنبحث هذه القضية ونعطى أمثلة ...

فى البدء :

عندما خلق الله الإنسان فى الجنة ، خلقه شخصاً ، على صورته ومثاله خلقه ، فى الإرادة والنطق والحرية والإبداع .. وقبل أن يخلقه أعد له الخليقة المادية من أشياء وحيوانات لكى تخدمه وتخدم كيانه ووجوده . وأوصاه أن يسود على هذه الخليقة ويخضعها ويتسلط عليها .

والنموذج الموضوع فى الجنة هو الإنسان غاية ، والموجودات وسيلة . الشخص هو تاج الخليقة ، والأشياء خاضعة تحت سيطرته ليحقق رسالته التى أعطاه الله إياها .

ولكن الخطيئة الجدية شوهت هذا النموذج الرائع ، وأفسدت العلاقات التى رسمت لتحكم الحياة فى الجنة .. فعندما خالف الإنسان الأول ربه وأكل بعيدا عن طاعته تنازل الإنسان عن مركزه السامى وتحطمت الشركة التى كانت بينه وبين الله ، وبينه وبين

نفسه ، وبينه وبين الآخرين .. وأما الأرض فقد لعنت بسببه وصارت تنتج له شوكا وحسكا وأصبحت العلاقة بينه وبين الموجودات سيئة عبر عنها الكتاب بقوله هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه ..

تأليه الأشياء :

لا عجب أن نرى الإنسان يفقد عظمته هذه ، وأضحى فى ظلمة وعزلة وفراغ داخلى .. وبدأ يبحث عن الموجودات لعلها تسد الفراغ وتلغى العزلة وتمنحه السعادة .. وإتخذ منها آلهة له . والعهد القديم مليىء بالآيات والسير والمواقف التى تحكى جهالة الإنسان فى تأليه المادة وعبادة الموجودات ولنعطِ أمثلة :

+ يقول بولس الرسول فى رسالته إلى رومية عن الصنمية وعبادة الأوثان « لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا فى أفكارهم وإظلم قلبهم الغبى ، وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات ... وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق ، مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلا وخصاماً ومكراً » (رو ١ : ٢١ — ٢٩) .

+ بل أن إسرائيل التى أعطاها الله الناموس والوصايا والشريعة أقامت عجلا من ذهب وعبدته فى البرية قائلة : « هذه هى آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر » (خر ٣٢ : ٨) .

+ ونبوخذ نصر فى بابل يقيم تمثالا صنما فى وسط المدينة ويدعو الجميع إلى عبادته ومن لا يسجد له يلقي فى أتون النار أو جب الأسود

والصنمية لها شقان داخلى وخارجى . الداخلى هو عبادة الإنسان للشهوة وهو ما عبر عنه الرسول : مملوئين إثماً وزنا وشراً وطمعاً وخبثاً .. والخارجى هو الإلحاد أو عبادة الموجودات .. وكلاهما مرتبط أشد ما يكون الإرتباط بالآخر .. فالأكل والجنس والمال والفكر والوظيفة والمهنة بدلا من أن تكون وسائل لإسعاد الإنسان وتعميق شركته مع الله تضحى غاية فى حد ذاتها وإلها يُعبد يمتلك القلب والفكر والكيان كله ..

تشييء الإنسان :

والخطية الأخرى المقابلة هى إحتقار الآخر وإعتباره أداة ووسيلة لتحقيق أطماع الذات . وهذه هى أمثلة واقعية :

+ المتكبر المتسلط على الآخرين ، الذى يحتقر إنسانية الآخرين ويستعبدهم له فكريا أو ماديا أو إجتماعيا .. إنه ينظر إليهم على أنهم أشياء وليسوا أشخاصا ، إنهم أدوات تستهلك وليسوا كيانا يحترم ويكرم . يقربهم إليه متى إحتاج إليهم ثم ينهى عليهم ويلفظهم كالنواة متى إستغنى عنهم ..

+ الشهوانى الذى يزنى ويفسد أجساد الآخرين ، إنه لا يرى فى هذه الأشخاص إلاّ جسداً يشتهى . إنهم جميعا ملهاة .. يتلهى بهم كيفما تسوقه نزعاته وغرائزه المنحرفة ثم بعد ذلك لا مانع من أن يمسك بالحجارة ليلقى بها على هذا الجسد الذى فتك به كما حاول اليهود عندما أحضروا المرأة الخاطئة إلى السيد الرب . يالبؤس الإنسان الجسدى . إنه يفسد ثم بعد ذلك يدين ويحكم !.. أما الله فمنهجه غير ذلك لقد أصلح ما أفسده هؤلاء الخطاة . إنه أقامها . إنه إحترم إنسانيتها .. لم يدنها وأعطاها نعمة لكى لا تعود تخطىء ويستهلكها الآخرون حررها من عبوديتها للشهوة ومن إذلال نفسها للآخرين . من خلال هذه الكلمات نستطيع أن نفهم بعمق الفارق بين الزنا وبين الزواج الطاهر ..

بين الجسدى والروحى :

إن الرب يسوع تجسد وصار إنسانا مثلنا فى كل شىء فيما عدا الخطيئة وحدها . فهو القادر وحده على إعادة العلاقة الحسنة الأصيلة التى بين الإنسان والأشياء ..

+ لقد كرم الإنسانية بأن الكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مثل مجد إبن وحيد لأبيه مملوء نعمة وحقا .

+ هو القائل بفمه الطاهر : السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت . فحتى الناموس نفسه كان لخدمة الإنسان ونموه ولم يكن سيفاً يسلط على رقبته لإذلاله .

+ لقد أعطى لكل من يؤمن به الحياة الجديدة بإستحقاقات الصليب لكى يستطيع المؤمن أن يحيا حسب الروح وليس حسب الجسد . فيبقى سيداً على ذاته ، على غرائزه ، على ميوله ونزعاته . وتبقى كل الأشياء فى العالم وسائل لتحقيق رسالته ، فهو إن أكل لا يستعبد للأطعمة ، وهو إن تزوج لا يستعبد للغريزة . وهو إن إمتلك المال لا تسيطر عليه محبة المال أصل كل الشرور وهو الذى يقول مع الرسول بولس « إن عشنا فللرب نعيش . وإن متنا فللرب نموت ، فإن عشنا وان متنا فللرب نحن .. » (رومية ١٤ : ٨) .

+ والكنيسة فى أسرارها الإلهية ووسائط النعمة ومجالات العبادة والتقوى تمنح الإنسان البصيرة الروحية التى توضح له سلامة مسيرته فى الطريق وتنذره بكل إنحراف يظهر فى هذا المجال فالصوم مجال لضبط العلاقة مع الطعام والغريزة الجسدية ، والتعفف مجال لضبط الحواس ، وتداريب الصمت مجال لضبط الحياة الداخلية وحمايتها من البعثرة والتمزع والتشتت ، والقناعة وإعطاء العشور والنذور والبكور والتقدمات الكثيرة مجالات لحماية الإنسان من عبادة المال والإقتناء .

إن الحياة الروحية يعبر عنها بإسلوب معاصر أنها حرص على أن يبقى المؤمن شخصا فردوسيا ، وتبقى الموجودات وسيلة لا غاية ..

الفصل الثانى

الطريق إلى الشبع الروحى

١ ــ سريان النعمة فى الشخصية

حياة المسيحى الحقيقى معجزة :

فولادته الثانية من الماء والروح معجزة ، لم يستطع أن يفهمها نيقوديموس ، ولكن الرب أوضح كيف أن المعمودية وهى باب الحياة الجديدة ولباسها ومنطلقها ، ليس إلا معجزة تفوق الأقيسة العقلية والمدركات البشرية .

وجهاده أيضاً معجزة :

ومنذ أن جحد الشيطان فى المعمودية ، وخرج المؤمن إلى العالم ، هو مدعو إلى مقاومة العدو والنضال ضد إبليس .. تماماً كما عمل الرب على جبل التجربة ، بعد أن بدأ خدمته على الأرض بالعماد فى الأردن .

وهذا الجهاد قال عنه الرسول بولس « فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم ، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر ، مع أجناد الشر الروحية فى السماويات « أف

٦ : ١٣) . فكيف يستطيع المؤمن أن يناضل وينتصر ؟ هذه معجزة .

إنها قوة الرب التى يقول عنها داود : « يمين الرب صنعت قوة ، يمين الرب رفعتنى ، يمين الرب صنعت قوة ، فلن أموت بعد ، بل أحيا وأحدث بأعمال الرب » (مز ١١٧) .

ولهذا النضال رموزه فى العهد القديم :

+ داود الصغير أمام جليات الجبار ، والنصرة لصاحب المقلاع .

+ دانيال فى جب الأسود . والرب يرسل ملاكه يسد أفواه الأسود .

+ الفتية الثلاث فى أتون النار . ورائحة الدخان لم تمس ثيابهم .

وهكذا يتحقق فى حياة كل مؤمن قول الرب : « فى العالم سيكون لكم ضيق ، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم » (يو ١٦ : ٣٣) .

وليس فى اللاهوت الأرثوذكسى إطلاقا ثمة إنفصال أو ثنائية بين النعمة والجهاد ، بين العامل الإلهى والعامل البشرى . هناك وحدة وتكامل وتناغم تام .. الله يعمل فينا ونحن نعمل معه كما طلب منا ، هو يهبنا العطية ، ونحن نحفظها ونحرص عليها لئلا تنزع منا .

والنعمة تسرى فى الكيان الإنسانى فى ثلاث موجات :

+ تعمل فى أرواحنا ، فتعطينا الحياة الجديدة .

+ وتعمل فى نفوسنا فى الوعى واللاوعى .

+ ثم تعمل فى أجسادنا ، فتروحن البدن والأعضاء .

١ ــ الحياة الروحية :

النعمة أول ما تعمل تعمل فى الروح .. تعطى بالمعمودية طبيعة جديدة ، وبالتوبة المستمرة شهية روحية متعطشة للأبدية . فبالصلاة يرتفع القلب نحو السماء ، وبالكتاب المقدس تستنير الروح ، ويستضىء الفكر بإرادة الله ومقاصده الإلهية . وبالتأمل والعبادة تنشط الروح ، وبالسجود المتواتر تنال الروح الخشوع ، وبالصمت الكثير تنال الوقار والإنضباط الداخلى ..

وبهذه الطبيعة الجديدة والشهية الروحية ، تعاف النفس محبة العالم ، لأنها تراها عداوة لله . وتبغض حكمة العالم ، لأنها جهالة عند الله . وترفض محبة المال ، لأنها أصل كل الشرور . وتبيع كل شىء ، لتنال اللؤلؤة كثيرة الثمن . وتنحل عن الكل ، لترتبط بالواحد ، الذى قيل عنه فى

الكتاب « إختارت مريم النصيب الصالح » .

ونجد فى الكتاب وصفا لكثير من الرجال الذين عملت النعمة فى أرواحهم :

فيقول الكتاب عن برنابا : « إنه كان رجلا صالحا وممتلئا من الروح القدس والإيمان » (أع ١١ : ٢٤) ... وعن إسطفانوس : « ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذى كان يتكلم به » . (أع ٦ : ١٠) ... وعن جماعة التلاميذ والمؤمنين فى عصر الرسل : « فكانوا يمتلئون من الفرح والروح القدس » (أع ١٣ : ٥٢) .

هؤلاء حسبوا أنفسهم أمواتا عن الخطية ، وأحياء لله بالمسيح يسوع ربنا . قدموا ذواتهم كأحياء من أموات ، وأعطوا أعضاءهم آلات بر لله .. كانت سيرتهم فى السماوات ، التى منها ننتظر جميعاً مخلصاً هو الرب يسوع . وإذ تغيروا عن شكلهم بتجديد أذهانهم ، قدموا أجسادهم ذبيحة مقدسة مرضية عند الله .

٢ ــ الحياة النفسية :

يسرى تيار النعمة ، فيغير ما نسميه فى علم النفس

الشعور واللاشعور ، أيضا الوعى واللاوعى .. الأخلاق والطباع والعادات والإتجاهات والميول والمفاهيم والخبرات .. حتى أن الذئاب تحولت إلى حملان .. كما يحكى تاريخ الكنيسة .

+ فشاول الطرسوسى ، الذى كان مفترياً وقتالا ، أصبح وديعا ومحبا خادما للجميع .

+ وموسى الأسود ، الذى كان ذا طباع خشنة مخيفا ، أصبح راهبا رقيقا حنونا ، مثالا فى الوداعة والبذل والحب .

+ وبطرس الرسول ، الذى كان خائفا أضحى شجاعا جريئا ، حتى أنهم لم رأوا مجاهرته مع يوحنا تعجب الجميع منهما ، وعرفوا أنهما كانا مع الرب .

+ وكل الذين كانت طباعهم وعاداتهم منحرفة ، لما عرفوا المسيح سرت النعمة فى إتجاهاتهم العميقة ، وغيرتها وأعطتها المسحة الروحية والطابع الإنسانى الكامل .

+ الله لا يغير نوعية الشخصية . يبقى عليها كما هى ، ولكنه يصلح مسار كل تيار منحرف فيها . فسمعان يبقى كما هو ، ولكنه يصبح بطرس الروحى . وشاول يبقى فى نمط شخصيته كما هو . ولكنه يصبح بولس الإناء المختار .

وأرسانيوس يبقى كما هو ، محتفظا بفرادته وطابعه الخاص الأصيل . الله يبقي نمط الشخصية التى خلقها ، لأن كل ما صنعه حسن جداً .

+ والنعمة تسرى فى اللاشعور ايضا . فالجبن فى اللاوعى . يتحول إلى شجاعة . والأنانية وتمركز الذات ، يصبح بذلا تلقائيا وعطاءا مستمرا دفوقا ..

٣ ــ والجسد أيضا :

جسد القديس شيء ، وجسد الشرير شيء آخر .

إن الكنيسة عندما ترسم أيقونة قديس ، تضع هالة على رأسه ، إشارة إلى النعمة التى توجت حياته ، وسربلت جسده . إن كنا نلبس المسيح ، فنحن نتوشح بالنعمة والمجد .

نقرأ عن القديس العظيم الأنبا شنودة كيف كانت يداه ووجه يضيء وقت الصلاة .

يقول القديس اغريغوريوس ، إنه إذا كان الجسد يشارك النفس البركات اللامنطوق بها فى الدهر الآتى . فمن الضرورى أن يشاركها على قدر الإمكان هذه البركات الآن .

وهكذا كان تحرر أجساد كثير من النساك والسواح والقديسين من المرض ، وتحكمهم فى الوحوش ، وتجلى وجوههم ، وعدم فساد بعض أجسادهم بعد الموت ، إنما هذه كلها كانت عربون تمجيد الجسد ، وعلامات مسبقة لما سيحدث لأجسادنا ، التى ستلبس عدم فساد ، وتقام فى فرح لا ينطق به ومجيد .

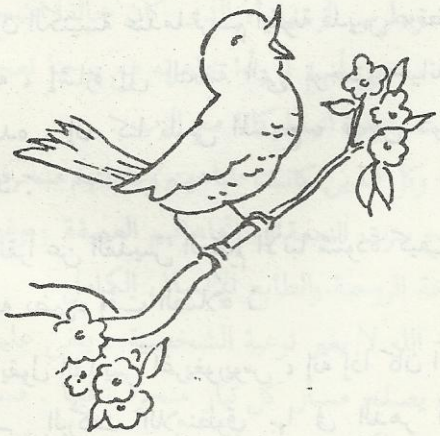

٢ ــ يملأ كل احتياجاتنا

« فيملأ إلهى كل إحتياجاتكم بحسب غناه فى المجد فى المسيح يسوع » (فى ٤ : ١٩) .

خُلق الإنسان محتاجا ، والله وحده هو الذى يملأ إحتياجه ... خلق محتاجا إلى الأكل ... فأمره الله أن يأكل من جميع شجر الجنة فيما عدا شجرة معرفة الخير والشر ... وعندما يأكل يشبع ، يشكر الذى أعطاه ما يسد عوزه وإحتياجه ... وهو خلق جائعا نحو الحب أيضا ، فأعطاه معينا نظيره لكى يتحد به ، وخلق تواقا نحو الحب الإلهى ... وكل ما على الأرض لا يرضيه ولا يكفيه ، وإنما الله وحده هو الذى يحقق كيانه ويملأ كل إحتياجاته ..

والذى يتأمل حياة القديسين يجد أنهم حققوا حياة الشبع الداخلى على أعظم ما يكون النموذج ... فقد كانت المقتنيات والماديات عند أرجلهم ، وكانت نفوسهم تعمر بالسلام والفرح الداخلى ، وكانت شركتهم مع الله حية وقوية وفعالة .

إنه سر الإنسان الذى لا يستطيع العالم أن يدركه ... حياة الملء لسد الإحتياجات الجسدية والنفسية والروحية .

الاحتياجات المادية :

تخاطب الكنيسة الله بأنه صانع الخيرات الرحوم ، وهو الذى يشرق شمسه على الأبرار والأشرار ، وهو الذى يعطى طعاما لكل ذى جسد ، وهو الذى أعال شعب إسرائيل فى البرية أربعين عاما بطريقة معجزية ، وهو الذى أعال إيليا فى القديم وبولا فى صحراء مصر سنين طويلة ... وهو الذى يطعم طيور السماء وغربان الوادى ويكسى زنابق الحقل وهذه كلها لا تزرع ولا تقلع ..

والرب يسوع إذ يعلم شدة وطأة الإحتياج المادى على الإنسان ، صنع معجزة إشباع الألوف من خبزات قليلة وسمكات لا تذكر مرتين ليؤكد أنه هو مصدر الشبع وسر الحياة الحقيقية ..

هناك سر إذاً من أسرار الحياة المسيحية يختبره أولاد الله القديسون هو سر البركة ... فالقليل يوضع فى يدى الرب يصبح كثيراً بسر لا ينطق به ... من أجل هذا حرص أباؤنا الأوائل أن يرسلوا العشور والبكور والنذور وكثير من ثمرات الحقل وغلاته إلى بيعة الله لكى يصلى عليها أوشية القرابين ، فتسرى البركة سراً فى حياة مقدميها والذين قدمت عنهم والذين قدمت بواسطتهم ..

الاحتياجات النفسية :

حقيقة ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. فالإنسان يجوع إلى الحب والحنان والأمن والطمأنينة مثلما يجوع إلى الخبز ويعطش إلى الماء . والإنسان الطبيعى يشقى سعيا وراء هذه الإحتياجات النفسية . إنه يكدس الأموال ، ويكثر من التأمينات الإجتماعية والصحية ، يجرى وراء الملاهى والترف والجنس ، يغرق فى دوامة العمل والمهنة والدراسة ... كل هذه محاولات لملء الفراغ الداخلى ومواجهة قضية العزلة ولكن الانسان الروحى يعلم أن هناك سراً من أسرار الحياة المسيحية يحقق الإستقرار والرضا والإرتياح انه سر **الفرح والسلام الداخلى** ... وهو إختبار روحى قال عنه الرب يسوع « سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يو ١٦ : ٢٢) .. إنه فرح وسلام ليس كالذى يعرفه العالم إنه فرح هادىء وصامت ، إنه عميق يملأ القلب تعزية ويشع على الداخل والخارج هدوءا وطمأنينة إنه يثبت فى الضيق ، ويهون المعاناة ، ويرفع النفس فوق التجربة وضغطات الحياة . إنه يدوم فى أحلك الساعات وأقساها . إنه ليس نوعا من التهييص والتهريج والهزل والمسرات العالمية ، ولكنه مواجهة صميمية للداخل وإقتناء للروح القدس « وأما التلاميذ فكانوا يمتلئون من الفرح والروح القدس » .

(أع ١٣ : ٥٢) ... إنه مرتبط بالقناعة والكفاف والشكر ، كما أنه متأصل جذريا بالتوبة المستمرة ، وصلب الأهواء والشهوات والأحقاد وهموم الحياة . وهوذا إشعياء فى القديم ينادى النفوس المتعبة ، وبروح النبوة يدعوها إلى أن ترتمى فى أحضان المسيا ليشرب الجميع من ماء الحياة ومن حب العريس الذى هو أطيب من الخمر ..

« أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه ، والذى ليس له فضة تعالوا إشتروا وكلوا ، هلموا إشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً ... لماذا تزنون فضة لغير خبز ، وتعبكم لغير شبع ، إستمعوا لى إستماعاً وكلوا الطيب ولتتلذ بالدسم أنفسكم » (أش ٥٥ : ١ — ٢) .

وهوذا الرب يناديا أيضا على لسان هذا النبى : « ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم ، وعلى رؤوسهم فرح أبدى ، إبتهاج وفرح يدركانهم يهرب الحزن والتنهد . أنا أنا هو معزيكم » (أش ٥١ : ١١) .

الاحتياجات الروحية :

يعبر الرسول بولس عن شدة إحتياج الإنسان إلى النصرة الروحية بقوله « فإنى أعلم أنه ليس ساكن فىّ أى فى جسدى شىء صالح .

لأن الإرادة حاضرة عندى ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ، لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل ... أرى ناموسا آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى ... ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت » (رو ٧ : ١٨ ـ ٢٤) .

ولكنه يرى النصرة والقوة فى شخص الغالب الذى كسر شوكة الموت وأعطى سر القوة والنصرة لكل الذين يؤمنون به . فالعظام الجافة والمبعثرة والنتنه التى رآها حزقيال فى نبوءته هب عليها روح القوة ، فقام منها جيش عظيم جداً جداً (حزقيال ٣٧) ... والمسيح الذى قام من بين الأموات سكب على الكنيسة قوة قيامته وقد أدرك المغبوط بولس هذا بقوله : « وماهى عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذى عمله فى المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه فى السماويات » (أف ١ : ١٩) . وإذ كانت محاربتنا مع أجناد الشر الروحية فى السماويات ، فإننا بنعمته نلبس درع البر ، ومنطقة الحق ، وترس الإيمان ، وخوذة الخلاص ، وسيف الروح لكى نقدر أن نطفىء جميع سهام الشرير المتلهبة ... مرنمين فى قلوبنا أنه بالمسيح يسوع يعظم انتصارنا بالذى أحبنا ... « شكرا لله الذى يقودنا فى موكب نصرته فى المسيح كل

حين ويظهر بنا رائحة معرفته فى كل مكان » (٢ كو ٢ : ١٤)
... ننسى ما هو وراء ونمتد الى ما هو قدام نسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع (فى ٣ : ١٣ و١٤) .. متذكرين قول الرب « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » (٢كو ١٢ : ٩) .

+ فى الإحتياجات الجسدية يمنح الرب سر البركة والقناعة

+ وفى الإحتياجات النفسية ينعم الرب علينا بسر الفرح والسلام الداخلى .

+ وفى الإحتياجات الروحية يسكب الرب علينا سر القوة والنصرة والغلبة .

٣ ـــ النفس الشبعانة

خلق الإنسان جائعا :

عندما خلق الله الإنسان فى الجنة ، خلقه كائنا جائعا ، يجوع ليأكل وعندما يأكل يشبع ، ولم يكن سر الشبع فى الأكل والطعام وإنما كان فى اليد المباركة التى تمنحه طعامه فى البستان . وإرتبط الشبع المادى بالشبع الروحى ، فقد كان آدم يصنع حوارا مع الرب ، كان يواجه النور السماوى والحق الإلهى ، كما كان يأكل من صنعة يده المباركة ، من جميع ثمار الجنة كان يأكل ، فيما عدا شجرة معرفة الخير والشر .

ولكن الإنسان عندما فصل بين الطعام وبين السر الإلهى ، أضحى الطعام سببا فى شقائه ، ولعنت الأرض بسببه وصارت تنتج له شوكا وحسكا ، وبعرق الوجه والتعب والنضال يحصل على قوت يومه .. وحدث إنفصام بين الذات والموجودات ، بين الكيان والأشياء ، بين ما هو Subject وبين ما هو Object ولما كان الإنسان ذاتا فإن الموجودات لم تستطيع أن تشبعه فعاش شقياً ..

باطل الأباطيل الكل باطل :

ويمثل لنا سليمان الحكيم قمة الإنسانية فى إمتلاكه

للموجودات . إذ يقول : « عظمت عملى ، بنيت لنفسى بيوتا ، غرست لنفسى كروما ، عملت لنفسى جنات وفراديس ، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر ، عملت لنفسى برك مياه لتستقى بها المغارس ، قنيت عبيدا وجوارى ، وكان لى وُلدان البيت ، وكانت لى أيضا قنية بقر وغنم أكثر من جميع الذين كانوا فى أورشليم قبلى ، جمعت لنفسى أيضا فضة وذهبا ، إتخذت لنفسى مغنين ومغنيات ... ومهما إشتهته عيناى لم أمسكه عنهما . ثم إلتفت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى ، وإلى التعب الذى تعبته فى عمله فإذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس » (جا ٢ : ٤ — ١١) .

وتفسير هذه المعاناة هى أن الإنسان ذات لا تشبع إلا بمن يتحد بها ليعلو بها على العزلة ، ويمنحها الإنتصار على الفراغ والقلق الداخلى ... والعامل الإلهى هو وحده الذى يستطيع أن ينتصر على عزلة الإنسان ، وهو وحده القادر أن يجعله مدركا للشعور بالألفة والصلة ، ومتوخيا غاية الحذر بوجوده ، والله لا يمكن أبداً أن يكون موضوعا ، وحينا تتحول الصلة بينه وبين الإنسان إلى شىء موضوعى فإنه يصبح حينئذ مجرد سلطة خارجية .. والله ذات وليس مجرد سلطة أو نواهى ، أو وصايا وشرائع .

ما الحل إذن ؟ :

لما نظر الله إلى مأساة الإنسان ، فوجده بعد سقوطه قليل الأيام وشبعان تعبا ، وأن الماديات لم تعد قادرة على إشباعه ، بل كل من يشرب منها يعطش .. أراد أن يعيد للإنسان الشبع الحقيقى . أخذ الإبن جسدا وصار إنسانا مثلنا فى كل شيء فيما عدا الخطيئة وحدها ... وأطاع مشيئة الآب ، ومارس الحياة الإنسانية بكل ما فيها من أنشطة ، ووحَّد بين ما هو مادى مع ما هو روحى . فأكل ولكن أكله لم يكن منفصلا عن طعامه الحقيقى وهو تنفيذ مشيئة الآب ، وجاع ولكنه قط ما تمرد أو تذمر أو قبل عرضا من عروض العدو على جبل التجربة وعند إشباع الجموع بالخمس خبزات والسمكتين ، كشف عن سر البركة وسر الشبع الحقيقى الذى يكمن وراء المادة عندما يتناول الإنسان العالم والمادة من يد الله .. وفى سر الأفخارستيا أعطى للمادة أن تتبارك وتتقدس وتتحول إلى جسده المقدس ودمه الكريم .

وهكذا أوضح الرب العالم بوصفه طعاما للإنسان ليس شيئا ماديا محدودا بالوظائف المادية مضادا للوظائف الروحية ، وإنما هو عطية الله للإنسان ، ومجال لممارسة حياة الشركة مع الله . إنها المحبة الإلهية وقد أصبحت طعاماً وحياة للإنسان ، والله يبارك كل ما

يقدمه الإنسان له ، ومباركة الله ليست عملا روحياً أو تعبديا فقط إنما هى طريق حياة الشبع الحقيقى .

المادة التى إختارها الإنسان لنفسه مثل المال ، الوظيفة ، الجنس ، الطعام ، العلم .. هذه كلها ليست الحياة الحقيقية وإنما هى مجرد مظهر للحياة . لقد فقد الإنسان الحياة الأفخارستية بسقوطه وإنتفى كونه كاهنا للعالم وأصبح عبداً له .. وجاء الرب يسوع وأعطانا فى شخصه أن نكون ملوكا وكهنة لله أبيه . مبارك ومسبح ومجد إلهنا الصالح الذى أعاد الينا الحياة فى الله وملأ حياتنا معنى ووجودا وروحا ، ومنحنا السر الإلهى الذى يحيل الموجودات إلى إتصال مع الذات الإلهية ، فتنتفى العزلة ويتلاشى الفراغ وتمتلىء نفوسنا شبعا وفرحا .

لنصلى مع الكنيسة قائلين « إملأ قلوبنا فرحا ونعيما إذ يكون لنا الكفاف فى كل شىء ، فى كل حين نزداد فى كل عمل صالح »

+ يا رب إن الذين أحبوك ، داسوا على مشتهيات العالم ..

+ والذين عرفوك ، فهموا مقاصدك الإلهية إزاء الإنسان والكون والمادة .

+ والذين تلذذوا بحلاوة العشرة معك لم يعودوا يشتهون شيئا ولا يخافون شيئا .. حقا النفس الشبعانة بك تدوس العسل

الفصل الثالث

هل من ضرورة للحياة الروحية ؟!

الأمر جد خطير :

الشخصية السوية فى الجو الدينى ذات أهمية كبيرة . الشخصية المعوجة لا تعطى مجالاً للروح القدس أن يعمل منها .

لا يستطيع أن يتمتع بالخلاص شخص مصاب بالبارانويا (الأكمة العالية) ولا بمركبات النقص والدونيه (الأودية) ولا بالشيزوفرينيا والخبث الشديد (الشعاب الملتوية) (لو ٣ : ٦) . ومعالجة موضوع الشخصية السوية فى الجو الدينى تطرح نفسها بقوة ، لأن المتدين المريض معثر والكتاب ينزل الويلات على من تأتى من قبله العثرات . إنه يقدم نموذجاً خاطئاً تقتدى به الناشئة وتقلده ، فيقودها إلى الهلاك . « أنتم ملح الأرض ، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح . لا يصلح بعد لشىء » (مت ٥ : ١٣)

وموضوع الشخصية السوية يكشف لنا عيوب التربية المنزلية ، وضعفات التربية الكنسية والدينية .

فالوالدن المسيطران بشدة على أبنائهما يطئان على نفسيات

الناشئة حتى تصبح أودية منخفضة . والوالدان اللذان يدللان طفلاً ويثيران فيه العجب والخيلاء من الطفولة ، يقدمان للمجتمع والكنيسة جبلا وأكمة وشجرة أرز متعالية ، تحتاج لصوت الرب كى يحفظها ويصلح مسارها . والوالدان المتذبذبان والمترددان والمختلفان معاً فى أسلوب التربية ، يثمران شعابا ملتوية تصعب إستقامتها ونفسية معقدة يصعب التعامل معها . لهذا نرى أنه من الواجب الإعتناء بالمنهج التربوى الأسرى والكنسى لتقديم نفسيات سوية وصحيحة وشخصيات متزنة وسليمة .

المنهج المسيحى منهج تكاملى :

عندما تحدث معلمنا لوقا عن نمو شخصية ربنا يسوع المسيح وهو فى الجسد فى بيت يوسف ومريم قال « فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (لو ٢ : ٥٢) ... وهذا المنهج الذى يشمل النمو العقلى والبدنى والنفسى والروحى والإجتماعى يرينا أهمية التكامل والإنسجام والتوافق فى عمليات النمو المختلفة لكى تكون الشخصية صحيحة وسليمة وفعالة . ولقد أثبتت الأبحاث أن الإنسان وحدة « سيكوفيزيقية » أى أن العوامل الجسمية والإجتماعية تؤثر فى النواحى النفسية والروحية . كما أن كل عامل من هذه يؤثر ويتأثر بالآخر فى تفاعل ديناميكى عجيب . من ثم لا

يصح أن نهمل جانبا من جوانب النمو لئلا يتعثر مسار الشخصية ويصيبها المرض أو الإنحراف .

علامات السواء فى الشخصية :

نورد هنا خمس علامات تشير إلى سلامة وصحة الشخصية :

١ ــ الصدق والخلو من الصراعات :

+ أن تكون صادقاً مع نفسك ومع إلهك هذا أمر أساسى فى الحياة الروحية السوية

+ أن يفتقر الإنسان إلى الصدق والإخلاص فى هدفه الروحى ، يوقعه فى صراعات مع نفسه ومع الآخرين .

+ الرب يسوع على الصليب أعطانا خدمة المصالحة ، « أى أن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم ، وواضعا فينا كلمة المصالحة . إذاً نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله » (٢كو ٥:١٨ــ٢٠) .

+ مار إسحق السريانى يعطى للصدق فى الهدف ، قيمة كبرى فى الجهاد الروحى للراهب ، وهكذا فى الجانب النفسى ، كلما تميزت الشخصية بالصراحة والوضوح والإخلاص للهدف الواحد ، كلما كانت سوية متكاملة .

+ النفاق والرياء والجبن والسلبية ، أمراض يعانى منها مجتمعنا ، لأن عملية التربية تخلو من الروح الإستقلالية وتربية الشجاعة فى إبداء الرأى والدفاع عن الحق .

٢ ــ الإستقرار النفسى :

إن الإستقرار الحقيقى هو فى الإتجاه نحو الله على حد تعبير القديس أوغسطينوس إذ يقول : « يارب لقد خلقتنا متجهين إليك ولذلك لن تجد قلوبنا راحة إلا إذا أستقرت فيك » فالمسيحى الحقيقى هو الذى يتمتع بذلك الإستقرار الداخلى والإتزان النفسى العجيب والتصميم الدؤوب والإصرار العنيد على المسير فى طريق الحق حتى المنتهى . والشخصية الروحية الصادقة تخلو من التطرف والإندفاع الشديد والإستهوائية والتبعية .

الإنسان إذا عاش للحق وتذوق الحق لا يقبل أن يكون عبدا لإنسان . « اشتريتم بثمن فلا تكونوا عبيداً للناس » ، « تعرفون الحق والحق يحرركم » . الحق والملء الداخلى تعطى إتزانا فى كل تصرف ويحمى الإنسان من الإنسياق وراء إحدى القيادات .

ومن الأمثلة على وضوح هذا الإستقرار فى يد الله سير أبائنا الرسل الأطهار فبطرس الرسول لم يكن يعبأ بالإضطهادات الخارجية بل كان هادئاً مصراً على أن يطيع الله أكثر من الناس مهما كلفته هذه الطاعة معاناة وجهاداً والرسول بولس كان يرتل مع سيلا فى السجن متحدياً آلام الحبس وأوجاع الضيقات .

الشهداء لم يكونوا مندفعين متهورين انما كانوا غيورين متزنين مستنيرين داعين لما يقدمونه للشهادة . والرهبان الحقيقيون ليسوا تابعين لمعلم أو أب يحركهم كما يشاء . وإنما خضوعهم كان فى دائرة الحب والحق المسيحى وحده .

إن حياة التسليم التى شعارها « إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت » هى مصدر كل راحة وإستقرار داخلى والثقة فى مواعيد الله الأمينة ، تمنح النفس سلاماً وثقة ، « أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن فى الزمان الأخير الذى به تبتهجون مع أنكم الآن إن كان يجب تحزنون يسيراً بتجارب متنوعة » (١بط ١:٥ و٦) على أن هذه النفسية المستقرة ليست متراخية أو متكاسله .

فالمسيحية تقوم على الإلتزام بقضية الإنسان ومأساته وترفض اللامبالاة وميوعة المواقف ... وما كانت المسيحية الحقة يوما مخدراً تغرق الإنسان فى الوهم والغيبيات . وما كانت ضعفاً وخنوعاً ، بل هى إكتشاف للأبدية التى فى الداخل وشهادة للحق المعاش فى الباطن ، ونفسية المسيحى تحمل نشاطاً لأنه صاحب رسالة ولكنه بلا قلق أو جزع أو خوف فسلام الله يحفظ قلبه وفكره فى المسيح يسوع : وداعته دون ضعف وجبن . تعففه دون وسوسة وتشكك . بساطته دون جهالة وغباوة . حيويته دون قلق وإندفاع وإرتجاليته مرحة دون هزل وإستهتار ووقاره دون تكلف وتعال وفريسية .

٣ ــ تجاوز للمؤثرات الخارجية :

عندما إمتدح الرب يسوع يوحنا المعمدان قال عنه إنه ليس ريشة فى مهب الرياح أى أنه يملك صموداً يتحدى الأوضاع الخارجية . وعندما شبه ملكوت السموات بإنسان بنى بيته على الصخر . قصد الباطن الذى لا يتزعزع لأحداث الزمان والمكان وتقلبات الإنسان .

الرجل الطبيعى يقع تحت سطوة الزمان فالماضى يثقل كاهله ، والمستقبل يؤرقه ويملأه فزعاً وقلقاً . أما الإنسان الروحى فهو يحيا حاضره فى ثقة وتسليم عجيب ... المؤثرات الخارجية قوى مشجعة أو قوى معاكسة ... المشجعة مثل النجاح والتقدير والعطف والحب ، والضارة مثل الفشل والمرض والألم والخيانة والإحباط .

والطبيعى أن تنحاز النفس إلى ما يريحها وترفض ما يقاومها . أما المسيحى فإنه يملك بالنعمة القدرة على أن يتجاوز ضربات اليمين وضربات اليسار ، لأن كل ما يعمل يعمل للخير للذين يحبون الله .

قداسته الداخلية تغلب المثيرات الخارجية . إتضاعه الباطنى يغلب التسلط والعنف والتجبر عند الرياسات . ووداعته تنتصر على الظلم والإضطهادات . إيمانه يتحدى الزمان ومحبته تحتمل أتعاب وأثقال الآخرين . إنها النفسية السوية الراسخة التى تستطيع أن تقول : « فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا » (رو ٨ : ٣٧) .

٤ ــ بذل بلا نفعية :

والمسيحى الحقيقى يقبل نفسه بلا تذمر . ومن أجل هذا يقبل الآخرين كما هم وليس كما يريدهم « اقبلوا بعضكم بعضاً كما أن المسيح أيضاً قبلنا لمجد الله » (رو ١٥ : ٧) .. وهو يعرف نفسه معرفة عميقة . فلا تلعب به مؤثرات الناس وتيارات الحياة . ثم هو يبذل ذاته لأجل الآخرين دون إنتظار لمنفعة أو مقابل ، يبذل كل قوى جسده ، كل حماس قلبه ، بل عزم إرادته ، كل نتاج فكره . لديه قدرة على الإنفتاح للآخرين وقبولهم داخلياً مهما إختلفوا معه فكراً أو مزاجاً وسطا . إنه لا يحب الذين يرى ذاته فيهم ولكنه يحب الجميع لأنه يرى يسوع المحبوب فى الكل . وهو فى تعامله مع الآخرين ــ على حد تعبير برجون ــ يعلو على المستويات الخلقية المتعارفة والقوانين الوصفية إلى مستوى البذل والإلهام والحق والإبداع .

٥ ــ الإستنارة والبصيرة :

+ الإستنارة والحكمة هى أم الفضائل كما ذكر القديس العظيم الأنبا أنطونيوس .

+ وهى عطية إلهية تعطى للشخصية السوية المجاهدة . إن

كان الشخص صادقاً فى جهاده . وإن حرص على إتزانه الروحى والنفسى والفكرى ينال إستنارة الحواس الداخلية .

+ الإستقرار فى يد الله يعطى الإتزان والطهارة الداخلية والخارجية تنمى فضيلة الإستنارة فى الشخصية السوية .

+ الرسول يوحنا يؤكد أن أولاد الله يعرفون روح الحق ، ويميزونه عن روح الضلال ويقول « وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ، ولا حاجة إلى أن يعلمكم أحد . بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شىء ، وهى حق وليست كذبا » (١يو ٢:١٧)

+ الشخصية الروحية السوية فى نموها تتجاوز اللذة والألم . الخطأ والصواب . الحرام والحلال ، لتحيا وفقاً للنعمة والحق . وهذه هى البصيرة الروحية : أن تنال نعمة فائقة للأقيسة الأرضية وتشهد للحق بمعجزة إلهية .

وبعد.... يطرح السؤال نفسه هل من ضرورة للحياة الروحية فى عصرنا هذا الذى تسوده المادية وفى أيامنا هذه التى تتسم بكثرة الإنشغالات بالدنيويات والإعتزاز بالتحصيل العلمى والإنجازات العظيمة ؟!!..

ونود أن نجيب على هذا السؤال من منظار إنسانى :

١ ــ الحياة الداخلية ملء لإنسانيتنا :

الإنسان خلق على صورة الله ومثاله ، لهذا لا يُفهم إلا من خلال الملء الداخلى ، كل مجد إبنة الملك من الداخل . الحياة الداخلية هى أساس حياة الإنسان الأول المخلوق للسعادة والفرح واللقاء مع الله . وكلما نمت هذه الحياة الباطنية ، كلما تحقق طابع الملء لحياة الإنسان الحقيقى . الإنسان الذى أراده الله ووضع نموذجه فى الجنة ، والإنسان الذى طلب الرب منه أن يحققه ويحياه .

وطالما الإنسان متغرب عن كيانه الأصيل الداخلى . فإنه لا يستطيع أن يرى الله ، ولا يستطيع أن يتمتع بالسلام الحقيقى .

الحياة الروحية دعوة إلى دخول الإنسان إلى أعماق الكيان ، وإعداد صهيون مدينة الإنسان المقدسة لحضور الله فيها ، إذ يقول الكتاب « أحب الله صهيون أكثر من جميع مدن يعقوب » . فالحياة الداخلية هى الحياة الحقيقية ، وهى الأساس والمنطلق لتحقيق الإنسان كيانه وأصالته وفرادته .

إغتراب الإنسان عن داخله ، إغتراب عن الكيان الإنسانى ، كما هو إغتراب عن الشركة مع الله . لأنه فى الحياة الداخلية وحدها يتم اللقاء مع الله .

مشكلة الإنسان المعاصر أنه مشتت .. ضائع .. يلهث وراء إحتياجات وتحديات العصر وينسى نفسه .. « ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى فداء عن نفسه .. » . (مت ١٦ : ٢٦) لنسمع قول داود « ويل لى فإن غربتى قد طالت علىَّ ، وسكنت فى مساكن قيدار » (مز ١١٩) ، « إرجعى يا نفسى إلى موضع راحتك ، لأن الرب قد أحسن إليك » . (مز ١١٤) هذا موضع الراحة ، منطقة السلام الداخلى ، حيث يكف الإنسان عن الضجيج والثرثرة والتشتت ، ويهدأ فى لقاء مع الله ، حيث التجمع والوحدة وتحقيق الكيان .

لأجل هذا نرى الإنسان فى الخارج ، تواقاً إلى أماكن الخلوة والهدوء ، ليقضى فيها أجازته الأسبوعية . وكثيراً ما لا يعرف سبباً لهذا الحنين . والحقيقة أنه نداء أصيل للدخول إلى الأعماق ، ليخرج من العدم إلى الوجود ، ومن التشتت إلى التجمع ، ومن الضياع إلى تحقيق الكيان .

الراهب إنسان داخلى . وهو أكثر البشرية تمتعاً بالحياة الحقيقية . إنه يسمع ما يتكلم به الله مع شعبه ، إنه يتكلم بالسلام مع قديسيه .

٢ ــ التقوى تجارة عظيمة :

يرى هادفيلد أن الخليقة ليست شيئاً مفروضاً من الخارج ، بل هى مطلب من سيكولوجيتنا نفسها . إنها مكتوبة على ألواح القلب . إن القانون الخلقى ينسجم مع رغبة الغرائز الأصلية ، فى إتجاهها نحو حاجات الغير ، كما تراعى حاجاتنا . فالخليقة فى جوهرها تقرير لقوانين بيولوجية طبيعية أعلى وأسمى ..

والأخلاق ليست مجموعة شرائع تفرض على الإنسان بصورة كيفية ، وبالتالى يكون رفضها تحرراً من قيود ، إنما الأخلاق هى التعبير عما ينبغى للإنسان أن يتبعه من قواعد ، إذا شاء أن يحقق أصالته الإنسانية . وبالتالى يكون رفضها تنكراً لتلك الأصالة ، وجحوداً لإنسانية الإنسان نفسه .

والمبدأ الإباحى يخفق فى النظرية وفى التجربة على السواء .

فالإباحية مستحيلة من الوجهة الإجتماعية ، لأن المجتمع يرفض تعبير الغرائز بصورة بدائية ، ويطالب بضبطها وحسن توجيهها والإباحية مرفوضة فى الطب النفسى الحديث ، لأنه ثبت أنها تزيد الصراع ولا تلغيه . وهى مخالفة للمبدأ البيولوجى الطبيعى ، أى قانون الأمانة الزوجية . فالأحادية الزوجية بإعتبارها قمة تطور الإنسان الطبيعى ، ترفض تعبير الذات الحر ، وتلتزم بالأمانة الزوجية أساس كل علاقة أسرية ناجحة .

والرسول بولس عبر عن هذا بقوله « إما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة .. » . (١تى ٦ : ٦) فالإنسان التقى مقبول ومحبوب من الوسط الاجتماعى ، وموثوق به من الجميع ، حتى ولو إضطهدوه ، من أجل أمانته . وهو سعيد فى حياته النفسية ، لأن غرائزه ودوافعه البيولوجية والنفسية ، تسير فى مجراها الأصيل بلا إنحراف ولا إضطراب ولا شذوذ ..

٣ ــ العفة المسيحية مطلب إنسانى :

يقول ترتليانوس المحتج المسيحى من القرن الثانى « إن النفس مسيحية بطبعها » . وهذا يعنى أنها تواقة إلى الفضيلة

والتقوى والعفة والطهارة . وكلما سعى الإنسان نحو القداسة ، كلما شعر بإنسانيته فى أرقى صورها .

فالعفة فى معناها الأصيل ، هى شبع داخلى ، وسمو بالغرائز وإنطلاق بكل القوى من خلال العشرة مع الله . والعفة لا تتضارب مع دوافع الإنسان ، لأنه ثمة فارق كبير بين الضبط الواعى وبين الكبت فى اللاشعور . وإذا كان الإنسان الطبيعى يعجز عن تحقيق تكامل شخصيته ، لأنه يستعبد لإحدى الغرائز أو الدوافع الأولية ، فإن غرائز المسيحى الحقيقى تجرى فى مجراها ، لتسير بقوة تيارها الأصيل ، لتخصب الشخصية وتثريها ، دون أن تسيطر إحدى الغرائز على مجال الحياة كله .

فالعفيف إذاً إنسان متكامل سليم ، لا يشكو إنحرافاً ، لأنه قد تدرب على ضبط الغريزة ، وحسن توجيه الدوافع والميول الداخلية ، وفى إطار الحياة الإجتماعية ، نجد العفيف ملجأ وحصناً لكثيرين إليه يلجأ كل متعب ، ليجد عنده حلا وإجابة ، لا يجدها فى برية العالم .

العفة نور ، وكيف يوقد سراج ويوضع تحت مكيال ؟! إن العفة المعاشة شهادة على إنسانية الإنسان ، كما هى كرازة عملية بقوة فاعلية الإنجيل ورسالة الخلاص .

الكنيسة الطاهرة كالشمس ، جميلة كالقمر ، مرهبة كجيش ذى ألوية .

تداريب روحية :

يحتاج كل واحد وبالأخص فى الجو الدينى أن يسأل نفسه :

١ ــ هل أنا صادق فى الوسيلة والهدف ؟

٢ ــ هل النعمة تعمل فى لأنمو فى كل جوانب الشخصية ؟

٣ ــ هل أعانى من بصمات الماضى ؟ وهل أنا قوة تغلب هذه الضعفات القديمة بسبب سوء التربية وظروف الحياة ؟

٤ ــ هل سلوكى يتسم بالصدق والإتزان والإستنارة مع الغيرة الحارة الإلهية ، أم أنا تابع لإنسان أو مستهوى لجماعة معينة ؟

٥ ــ هل أنمو فى الإستنارة الداخلية لأحيا حسب النعمة والحق ؟

٦ ــ هل لى الحياة الداخلية والتقوى والتعفف للوصول إلى حياة روحية أفضل أم إنها مجرد أخلاقيات مفروضة من الخارج ؟

الفصل الرابع

إيجابية الحياة ومعناها

١ ــ الإيجابية فى الحياة

أن تكون إيجابياً ، هذا يعنى أنك تتمتع بإنسانيتك . أما أن تكون سلبياً ، فهذا يعنى أنك تهمل كيانك الذى خلق على صورة الله ومثاله .

الله إيجاب كله وليس فيه سلبية البتة . هو النور ، هو الحق ، هو الحب ، هو الفرح ، هو الحياة .. وكل من يفعل الحق يقبل إلى النور ، لكى تظهر أعماله أنها بالله معمولة (يو ٣ : ٢١) .

مفهوم الإيجابية مسيحياً :

الإيجابية الحقة هى الشركة مع الله مسيحياً . فالذى يحيا فى النور ، ويعمل أعمال النور ، هو الإيجابى . أما أعمال إبليس فهى الظلمة والضلال والموت والعدم . فالإيجابية كيانياً فعل باطنى . ولكن لها فاعليتها فى الحياة الخارجية .

هى حضور الله فينا ، وهى شهادتنا للنعمة الموهوبة فى داخل هياكلنا أيضاً .

كل من هو مسيحى حقاً ، لا يستطيع أن يهدأ هدوء الإستكانة واللامبالاة .. يقول طاغور « لا أستطيع أن أكون مسيحياً ، لأنى لو صرت مسيحياً لا أستطيع أن أنام » ... أى أن محبة المسيح إن لمست قلبه ، ستجعله شعلة تحترق حباً لأجل الآخرين .

الرب يسوع مثال الإيجابية :

وفى دراستنا لحياة الرب يسوع ، نجده النموذج الصالح للإيجابية الحقة .

كان يجول يصنع خيراً ...

كانت حياته شفاء للمرضى ، وعزاء للحزانى ، ودهن فرح للروح اليائسة . صلواته وخلواته وإعتكافه ، وكذلك كرازته وبشارته وخدماته .. كانت جميعها إيجاباً وعملاً خلاقاً .

« أبى يعمل وأنا أيضا أعمل » .

قاومه الفريسيون فلم يتخاذل ، تكاتفت عليه قوى الظلمة فلم يحول وجهه عن الجلجثة ليعطى كل إنسان مثالا أن يكون ملحاً للأرض ونوراً للعالم .

الإيجابية فى كنيسة الرسل :

وكانت كنيسة الرسل شعلة ملتهبة ، عندما إضطهدوا لم يهدأوا ، بل تشتتوا كما يتطاير شرر النار ، وجالوا مبشرين بالكلمة .

والمؤمنون الذين عاشوا فى السراديب ، ظلت قلوبهم تتقد بحب مسيحهم ، مفضلين أن يعيشوا فى ظلام السراديب محتفظين بأمانتهم لمن أحبهم وأحبوه ، عن أن يعيشوا بالتنعم بين الرؤساء والعظماء ناكرين الحب متصالحين مع الظلمة والعدم فى عبادة الأوثان .

+ الإيجابية فى المسيحية تحقيق للصورة الإلهية التى عليها قد جبلنا .

+ الإيجابية فى حياة أولاد الله إستجابة للنداء الإلهى والدعوة المقدسة التى عبر عنها بولس الرسول بقوله « مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها » . (أف ٢ : ١٠)

+ الإيجابية هى ملء كيان الإنسانية ، وبرهان ممارسة حريتها .

معوقات الإيجابية :

من إعتنق المسيحية لم يسعه أن يهرب من العالم لأن الله قد دخل فى صميم العالم بتجسده المبارك . وأصبحت البشرية كلها جسد المسيح ، وأصبحت آلامها آلام المسيح .

فليست المسيحية هرباً من الحياة ، وانما هى إلتزام بقضية الإنسان إينما كان وفى كل زمان .

« لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير » (يو ١٧ : ١٥) . فالمسيحى الحقيقى هو من يحب ، ومن لا يحب فهو ليس من الله . فلا نحب بالكلام واللسان بل بالعمل والحق .

فالتدين المسيحى السليم هو الحياة للملكوت .

ولكن الملكوت يبدأ من هنا . وإنتظار الملكوت لا يعنى الهرب من الحاضر ، وإنما يقتضى تجلى الحاضر .

فالذى يحيا للأبدية ، يشع أنوارها فى العالم الذى يعيش فيه . وكأنه بذلك يعجل الدخول فى أعتابها المقدسة وتخومها اللانهائية . فإما أن تكون الآخرة منذ الآن حاضرة بيننا وبواسطتنا .. وإما لن تكون بالنسبة لنا .

+ التدين المريض هو الذى يعطل إنطلاقة الإنسان ، ويسقطه فى بالوعة اليأس أو التعصب والإنغلاقية أو الأحقاد والكراهية ..

أما الذين عرفوا حياة المخدع وأختبروا حياة الإيمان والتسليم فإنهم يعيشون ملقين كل همهم عليه لأنه هو يعتنى بهم . ولسان حالهم يردد ما يقوله القديس بولس « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ١٣) .

+ ومن معطلات الإيجابية : الكسل ، واللامبالاة ، والعطف على الذات ، والتخوف من حمل المسئولية . لأن المسئولية جراح ، ولا يحتمل الجراح إلا من يتجاوز الذات .

+ ومن معطلات الإيجابية أيضا خبرات الفشل السابقة ، ولكن الإيمان يعلو فوق الزمان .. فالماضى ليس ثقلا ونيراً على كتف المؤمن ، ولكنه خبرة دينامية تدفع إلى الأمام . لأن جعالة الله العليا التى فى المسيح يسوع ، تنسينا ما هو وراء ، وتلهمنا القدرة على البذل والمبادأة والمثابرة والإنتظام .

يقول باسكال الفيلسوف المسيحى : إنى أحافظ على شمعة حبى متقدة ، لأنه إن انطفأت شمعتى فما الذى يذيب الثلوج !!

+ ربى يا من كنت مثالا لنا فى كل عمل صالح ، هبنا جميعاً روح البذل والعطاء ، ولا تسمح لواحد من أولادك أن يكف عن الحب والعمل البناء فى الداخل والخارج ، لأن الوقت مقصر والأيام شريرة .

+ ربى أتوسل إليك ، يا من ألقيت نار حبك على الأرض ، وطلبت من الآب أن تضطرم ، ألهب قلوبنا حباً لك حتى ننسى ذواتنا وننطلق نخدم الجميع عطاء وبذلا وإتضاعاً بلا تحيز أو تفريق .

٢ ــ معنى الحياة

ليس فى الحياة ذخرة حاضرة من المعانى ، بل هناك قوى كامنة نستطيع أن نصنع منها ما نشاء من المعانى ..

فالحياة رسالة ، وقلّ من يتساءل عن معنى الحياة ، ومناشطها الرئيسية ، ومخاوفها الأساسية ، حتى ننتهى من التعرف على نوعية الحياة الأفضل التى إليها دعينا فى المسيح يسوع .

الحياة الحقيقية هى فى الله :

يقول الكتاب المقدس : « فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ، والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه » (يو ١ : ٤) فالحياة الحقيقية هى التى يحياها الثالوث القدوس ، وهى التى يهبها للعالم (يو ٦ : ٣٣) ، فقد كانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، ولكن روح الله كان يرف على وجه المياه .. من هنا ظهرت الحياة .. فالله وحده هو حياتنا ، « به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع ١٧ : ٢٨) وهذه الحياة التى يحياها الله هي نور من نور ، فالله يسكن فى نور لا يدنى منه ، وهى حق لا غش فيها ، وهى مجد لا يوصف ، وهي فرح لا ينطق به .. هى حياة تفوق كل تصور .. ما لم تره عين ، ما لم تسمع به أذن ، ما لم يخطر على قلب

بشر .. والإنسان مدعو إلى أن يشارك الله حياته هذه الممجدة ، فقد خلق على صورته ومثاله ، وأعطى نفخة الحياة ، ومنح الحرية التى تعطيه القدرة أن يقول لخالقه لا ، فقالها ثم سقط ومات .. أما الله كلى الحب فلما وجد الإنسان ساقطا ميتا ، نزل إليه ليعيد إليه الحياة ، وأعلن المسيح هذه الحقيقة أنه هو القيامة والحياة ، ومن آمن به ولو مات فسيحيا ، وكل من كان حيا وآمن به فلن يموت إلى الأبد (يو ١١ : ٢٥) ، وقال أيضا « أتيت لتكون لهم حياة ، وليكون لهم أفضل (يو ١٠ : ١٠) .. من هذا المنطلق تكون حياة المسيحى رسالة وإلهاما .. نعمة وحقا .

الحياة رسالة :

كانت حياة الرب يسوع على الأرض رسالة حب وطاعة للآب السماوى ، وقد أعطانا جسده ودمه الأقدسين لكى نتحد به ، ونستطيع من خلال الشركة معه أن نسلك كما سلك هو ، وإلا نعيش لأنفسنا ، بل نسعى لتتميم مقاصده السماوية ورسالته الإلهية ، وهذا ما عبر عنه المغبوط بولس : « كى يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذى مات لأجلهم وقام » . (٢كو ٥ : ١٥) فحياة المسيحى إذاً رسالة .. يحققها من خلال أنشطته ، فكرا وقولا وعملا وعبادة ..

الفكر :

إنسانيتنا لا تكتمل إلا بالفكر ولا تتحقق إلا بإستخدام هذه الطاقة التى منحنا الله إياها . والمسيحى يستأثر كل فكر لطاعة المسيح ، ويفكر لإسعاد نفسه وتقدم البشرية جمعاء .. كل ما يقوله هو نتاج فكر نير ، وعقل نشط يعمل كقيثارة تحركها أنامل الله المباركة لتعزف لحن الحياة المقدسة فى أسمى مقاصدها وأنبل غاياتها .. فالفكر مسيحيا ليس مجرد موضوع للمعرفة بل هو خبرة معاشة عامرة بالحياة حافلة بالتأثير والفاعلية المباركة .

العمل :

يفترض العمل أن كلا من الإنسان والعالم ليس حقيقة مكتملة ، أو شيئا جاهزا معداً من ذى قبل ، بل هو حقيقة مرنة تلتمس التحقق ، أو شيئا ناقصا لابد من العمل على إستكماله ، فالعمل هو إلتزام الإنسان المسيحى فى الطبيعة .. والمجتمع يوم أن خلقه الرب ، وأمره أن يعمل فى الأرض ويفلحها ويسيطر عليها . العمل إذاً وصية إلهية قبل أن يكون إلتزاما إجتماعيا .. ويرى برجسون أن ما نعمله رهن بما نحن إياه ، بمعنى أن فعلنا متوقف على نوع وجودنا ، وهذا ما عبر عنه الكتاب المقدس أنه من كنز القلب

الصالح تخرج الصالحات ومن كنز القلب الشرير تخرج الشرور ، والكنيسة تعلمنا أن الله سوف يدين كل واحد حسب أعماله ، فالمسيحى الحقيقى الذى يعى رسالته لا يكف عن أن يعمل كل ما ينشر فى الخليقة حبا وخيراً وصلاحاً .. سر الرسالة يحمل فى قلوب المؤمنين لهيبا ، ومياه كثيرة لا تقدر أن تطفىء سعيرها .. الرب يسوع جال فى الأرض يصنع خيرا .. فهلم نصنع صلاحا ، ننشر حبا ، نشع سلاما وفرحا .. وكأس ماء بارد لا يضيع أجره فى السماء .

العبادة :

وقمة أنشطة الحياة هى التسبيح وتمجيد إسم الله القدوس ، العبادة ترفع إنسانيتنا إلى مرتبة السيرافيم ، وكل من إختبر جمال العشرة مع الله أدرك قيمة الحياة ومتعتها .

العبادة تعطى للحياة بعداً داخلياً عميقاً ، وتشدد الرجاء ، وتقوى الصبر والعزاء .

الحياة تطرد مخاوفها :

وإذا كانت الحياة تحمل فى طياتها المخاوف والمخاطر فإن الإنسان الطبيعى يخاف من الفشل ، ومن المجهول ، ومن العجز

والشيخوخة ، ومن الخطر والموت ..

هذه المخاوف تحرم الإنسان بهجة الحياة ومتعتها ، أما المؤمن فهو يحمل فى دينامية حياته قدرة على غلبة الخوف .. أنه بالإيمان قد صار فوق قمة العالم لا يخاف شيئا ولا يشتهى شيئا .. إن المسيح الذى فيه قد غلب الموت والخطيئة والشيطان ، وهو أمس واليوم وإلى الأبد .. « وهذه هى الغلبة التى تغلب العالم وإيماننا » (١يو ٥:٤) .

وبعـــد

هذه هى مسيحيتنا ، حياة نحياها ، ليست غموضا أو ثقلا ، ليست عبثاً أو لهواً ، إنما هى رسالة ونضال وتصميم كما هى فرح وبهجة وتسبيح ..

ويسوع الذى سكب فينا حبه بروحه القدوس يؤازرنا ، ويعمل بنا وفينا لتتميم مقاصده الإلهية وأما نحن فلنا سر رسالته فكرا وقولا وعملا وتسبيحا .

الفصل الخامس

أبعاد المحبة الفائقة

« وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله »
(أف ٣ : ١٩)

لقد أحنى الرسول بولس ركبتيه مصلياً لأجل كنيسة الله التى فى أفسس طالباً من الآب السماوى أن يؤيد المؤمنين بالقوة فى الإنسان الباطن ، وأن يحل المسيح بالإيمان فى قلبهم ، وأن يكونوا متأسسين وراسخين فى المحبة ، ليدركوا العرض والطول والعمق والعلو لمحبة المسيح الفائقة المعرفة .

وإذا كان الشيخ الروحانى قد قال : « **حاولت أن أتكلم عن محبة الله فعجزت** » فإن الحقيقة أنه من الأمور المذهلة تلك المحبة الأبوية التى كشفها لنا الآب السماوى فى العهد الجديد . لا يستطيع عقل أن يفهم أغوار هذه اللجج العمقية من الحب الإلهى ، ولا يستطيع قلب مهما إتسع بالحب أن يحتوى شعاعا من نور محبة الله للبشرية .. لهذا عبر عنها الرسول بأنها المحبة الفائقة المعرفة .

ونود أن نتأمل قليلا فى بعض أبعاد هذه المحبة التى وهبت لنا كى نمتلىء إلى كل ملء الله .

فى عرضها :

إن أردت أن تعيش عرضها فانظر إلى الأحضان المفتوحة على الصليب لتدرك مدى إتساع هذا الحب الإلهى .. أن الرب سمر يديه على الصليب هكذا ليبدو مرحبا بأحضانه لكل من يقبل إليه وفى أى وقت يشاء .

وقد إتسعت هذه المحبة فشملت البشرية كلها وتجاوزت كل تعصب جنسى ولونى وقلبى وإجتماعى ، وقد شاهد يوحنا الحبيب فى رؤياه كيف أن محبة المسيح جمعت البشرية من كل أمة ولسان وقبيلة وشعب إذ يقول : « بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض ، وفى أيديهم سعف النخل ، وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف » (رؤ ٧ : ٩ — ١٠) .

ففى المسيح ليس يونانى ويهودى ، ختان وغرلة ، بربرى ، سكيثى ، عبد ، حر ، ذكر وأنثى بل المسيح الكل وفى الكل ..

كل الذين تلامست نفوسهم مع محبتك يارب إتسعت قلوبهم وإحتوت المحبين والأعداء القريبين والغرباء وستظل كلماتك على الصليب « يا أبتاه إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » نبعا فياضا يرتشف منه كل الجاثين تحت أقدام المصلوب لتتجاوز حياتهم الأحقاد والكراهية والتحزبات وكل إحباط .

يا نفسى إلى متى تبقين فى الكورة البعيدة .. هوذا الآب منتظر عودتك ، إنه فاتح أحضانه . إنه تارك حسابه . إنه غافر تعدياتك . لترتمِ فى الأحضان المتسعة فتجدين الراحة والسلام والخلاص والحياة الأبدية ...

فى طولهـا :

من يستطيع أن يقيس أطوال ربط الحب التى جذبنا بها الرب من القدم .. إننا كنا فى فكرك من قبل تأسيس العالم . مبارك أيها الآب أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح يا من باركتنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح . كما إخترتنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة .

كنت مشغولا يا إلهى بتدبير خطة خلاصى عبر كل العصور والأجيال . وعدت آدم بنسل المرأة ، إخترت إبراهيم وإسحق

ويعقوب ، أغرقت الأشرار بطوفان وأحرقت الفساد فى سادوم وعامورة . أخرجت الشعب من أرض العبودية ، أعطيتهم الناموس عوناً ، قدتهم أربعين سنة وأعلتهم فى أرض قفر ، وأدخلتهم أرض الميعاد وأعطيتهم قضاة وملوكا وكهنة وأنبياء .

نعم يارب كلمت البشرية بأنواع طرق كثيرة ، ثم فى آخر الأيام كلمتنا فى إبنك الذى جعلته وارثا لكل شىء ، الذى به أيضا عمل العالمين بهاء مجدك ورسم جوهرك وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته ... (عب ١ : ١ ــ ٣)

وإذا كان طول محبتك الفائقة كائن منذ الأزل ويمتد إلى الأبد ، فإنه فى حياة أولادك محبتك ممتدة لا حدود لها قال عنها القديس أغناطيوس المتوشح بالله : « ٨٦ عاما والرب لم يصنع معى إلا كل خير فكيف أخونه ؟! » ثم قدم جسده للوحوش الكاسرة كبرهان وصدى للحب الإلهى الذى عاشه طيلة عمره .

وهكذا القديس أثناسيوس رغم كل متاعب الخدمة والشهادة عاش أميناً لمحبتك .. ويوحنا ذهبى الفم عندما لفظ أنفاسه الأخيرة قال : « مبارك الرب الهى فى كل شىء » .. وأعطاك المجد والكرامة والشكر متجاوزا مرارا وعذابا إمتد طيلة خدمته الرعوية على الأرض

وهكذا بولس الرسول أيضا الذى إمتلأت حياته بالضربات والسجون والجلدات والرجم والأخطار والحبس والتعب والكد والجوع والعطش والسهر والمرض والعرى يقول سيموفونيته العذبة: « من سيفصلنا عن محبة المسيح . أشدة أم ضيق أم إضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف . كما هو مكتوب إننا من أجلك نمات كل النهار . قد حسبنا مثل غنم للذبح . ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا » ... (رو ٨ : ٣٥ — ٣٧)

« باركى يا نفسى الرب ولا تنسى كل حسناته الذى يغفر جميع ذنوبك ، الذى يشفى كل أمراضك ، الذى يفدى من الحفرة حياتك ، الذى يكللك بالرحمة والرأفه ، الذى يشبع بالخير عمرك ، فيتجدد مثل النسر شبابك » . (مز ١٠٣)

محبتك يارب تغمرنى . أنت الذى دعوتنى وأخترتنى ، أنت الذى أعطيتنى الإيمان بك أنت الذى منحتنى الولادة الثانية أنت الذى وهبتنى الكنيسة والإنجيل والأسرار ، أنت الذى تقبل توبتى رغم كثرة عثراتى .. « بماذا أكافىء الرب عن كل ما أعطانيه ؟ كأس الخلاص آخذ وباسم الرب أدعو » ... (مز ١١٥) .

فى عمقها :

لم يستطع الرسول أن يعبر عن أعماق هذه المحبة الفائقة سوى

بقوله : « هكذا أحب الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣:١٦) . نعم .. « ليس حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه » (يو ١٥:١٣) .

محبة الآب فى عمقها وصلت إلى حد بذل الإبن الوحيد ، ومحبة الرب يسوع وصلت إلى حد الموت على الصليب .

بل وأن المحبة وصلت إلى التناهى بدرجة لا توصف ، أن الله بعد الصليب نزل إلى الجحيم ، نزل إلى الهاوية ، لكى يفدى كل الذين عاشوا على الرجاء إذ يقول الرسول : « إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً وأعطى الناس عطايا ، وأما أنه صعد فما هو إلا إنه نزل أيضا أولاً إلى أقسام الأرض السفلى ، الذى نزل هو الذى صعد أيضاً فوق جميع السموات لكى يملأ الكل » (أف ٤ : ٨ ــ ١٠)

ونزول الرب إلى هذه الأعماق لا يزال يتكرر كل يوم ، إذ تنزل يا رب إلى أعماق كل نفس خاطئة لكى تطهرها بروحك من كل دنس الجسد والروح . تطهر النوايا والخلجات والمشاعر والإتجاهات ، لصلب الأهواء والشهوات . أنت وحدك الذى لك هذا العمق فى حبك وفى قدرتك ...

فى العـلو :

عندما أراد عبدك بولس الرسول أن يصف علو محبتك الفائقة لنا قال : « الله الذى هو غنى فى الرحمة من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ، بالنعمة أنتم مخلصون ، وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح يسوع ليظهر فى الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا فى المسيح يسوع » (أف ٢ : ٤ ــ ٧)

محبتك العالية رفعتنا إلى السماويات ، عندما نقف للصلاة نحسب كأننا قيام فى السماء ، محبتك ترفعنا إلى فوق أحداث الزمان والمكان وضعفات الانسان .. محبتك تعلو بنا إلى الجبال العالية لتختبر قمم الحب وإن هبطنا إلى السفح فهى تهدينا وتمسك بأيدينا لترفعنا ثانية فوق أجنحة النسور .

مبارك يارب فى معاملاتك مع أولادك كم من مرة تحملنا الأذرع الإلهية ونردد مع عبدك داود قائلين : « يمين الرب صنعت قوة يمين الرب رفعتني ، يمين الرب صنعت قوة فلن أموت بل أحيا » (مز ١١٧ : ١٦ ــ ١٧) ..

ممجد ومسبح أنت يا رب فى أبعاد محبتك الفائقة فى عرضها ، وفى طولها ، وفى عمقها وفى علوها ...

٤٠

يطلب من
المكتبة المرقسية بملوى — ص. ب ١٣
وجميع المكتبات المسيحية